حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٩ (عدد يوليو – سبتمبر ٢٠٢١)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)

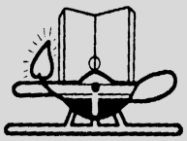

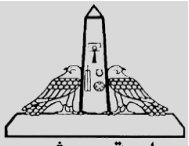

السلالم الحِجاجية ومستوياتها في كتب المجالس النحوية

أسمهان سهل كاظم*
محمد عبد مشكور الكعبي**

كلية الآداب – قسم اللغة العربية - جامعة بغداد – العراق
Woh82@gmail.com

المستخلص

السُلّم الحِجاجي هو ترتيبُ الحُجج الواردةِ في الملفوظ بحسب درجاتِ ضَعفها وقوّتِها، وتكمن أهمية نظرية السلالم الحجاجية في إخراج قيمة القول الحجاجي من حيّز المحتوى الخبريّ للقول الخاضع لشروط الصدق المنطقي، إلى قول حجاجي ذي وجهة حجاجية تُحددُ قيمته بعدِّه دعمًا لنتيجة ما؛ لذا عُدّت من أركان نظرية الحجاج اللغوي. وهذا البحث محاولة لعدم قصر الحجاج اللغوي بالقرآن الكريم أو النّصوص الأدبية، فالمجالس النّحوية هي أيضًا أرضا خصبة لتطبيق نظرية الحجاج اللغوي لاسيما السّلالم الحجاجية، واعتمدنا من كتب المجالس: مجالس ثعلب(ت٢٩١هـ)، ومجالس العلماء للزجاجي(ت٣٣٧هـ)، وكتاب المجالس للخطيب الإسكافي(ت٤٢٠هـ).

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠٢١.

السّلالم لغة:

السّلالم جمع (سُلّم)، من (س، ل، م) وهو السّبب والمرقاة [١]. والسُلّم يذكر ويؤنث والتذكير أكثرُ[٢]، وجمعه "سلاليم وسلالم" [٣]، والصّحيح أنّ زيادة الياء في (سلاليم) إنّما هو لضرورة الشعر في قول ابن مُقبل:

لا تُحرزُ المرءَ احجاءُ البلاد ولا
تُبنى لهُ في السموات السلاليمُ[٤]

وقال الزّجاج : السُلّم المرقاةُ والدرجة وسُمّيّ به لأنّه يسلمك إلى حيث تريد ، وزاد الراغب : من الأمكنة العالية فتُرجى به السلامة[٥] .

أمّا اصطلاحًا :

فالسّلم الحجاجيّ (Echelle argunentative) هو عبارة " عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين الآتيين:

أ- كلّ قول يقع في مرتبة ما من السُلّم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

ب- كلّ قول كان في السلّم دليلًا على مدلول معين كان ما يعلوه مرتبة دليلًا أقوى عليه"[٦].

وتُعدّ هذه النظرية من أركان نظرية الحجاج اللغوي؛ ذلك لأن ديكرو ألف كتابه (السلالم الحجاجية) عام ١٩٨٠، ثم صنّف فيما بعد مع انسكومبر كتابهما المشترك (الحجاج في اللغة) عام ١٩٨٣م، والسلالم الحجاجية هي النواة المهمة التي تطورت عنها نظرية الحجاج، فقد لاحظ ديكرو أن الحجج ليست على درجة واحدة من القول بل تندرج في القول حتى تصل إلى أقواها ؛ لذا عُرفت بـ (Echelle) وتعني بالفرنسية (السُلّم) . فكما يرتقي السلم بالشخص للوصول إلى هدفه، كذلك السلّم الحجاجي يرتقي بالحجة حتى تصل إلى النتيجة المطلوبة.

وأدرجت هذه النظرية في الحجاج اللغوي لأنها مجموعة من الأقوال المزودة بعلاقة ترتيبية في عملية تفاعلية بين قول الحجة والنتيجة ، ونظرية السلالم الحجاجية تنطلق من اقرار هذا التفاعل والتلازم . ومعنى التلازم "هو أن الحجة لا تكون حجة بالنسبة إلى المتكلّم إلاّ بإضافتها إلى النتيجة مع الاشارة إلى أنّ النتيجة قد يصّرح بها وقد تبقى ضمنية "[٧]. ونجد هذا التلازم في قول الإسكافي " ومن حجة النحويين أنه ليس في كلام العرب فيعلٌ عينهُ ياءٌ ولامُه واوٌ، ولأن ذلك ضد مقتضى الحكمة؛ لأنّ الآخر أثقل من الوسط، وقد جاء ما عينه واوٌ ولامُه ياءٌ، نحو لوَيْتُ وحَوَيتُ، فاحتُمِلَ في الأوسط الذي هو موضعُ الخفة الواو التي هي أثقل من الياء، وخُص الآخر لمّا كان موضعَ الثقل بالياء بَعدَ الواو لبُعدِ الحال باللفظ الثقيل في المكان الخفيف في المكان المستثقلِ وقالوا: فاذا بنيت حيوانًا من ياءٍ وواوٍ فقد عكست ما أوجبه القياس، فلا النظيرُ يُجيزُه، ولا النظيرُ في الكلام يُصحّحه"[٨] .

فالحجة "انه ليس في كلام العرب فيعلٌ عينهُ ياءٌ ولامه واوٌ" لا يعتد بها المتكلم إلا بإضافتها إلى النتيجة المصرح بها هنا وهي "فقد عكست ما أوجبه القياس، فلا النظير يجيزه، ولا النظيرُ في الكلام يصحّحهُ "هذه النتيجة جاءت عبر عدّة جمل مترتبة من الأدنى إلى الأعلى في السلّم الحجاجي وهي "لأن ذلك ضد مقتضى الحكمة؛ لأن الآخر أثقل من الوسط..." ونلاحظ أن كل نتيجة هي بدورها حجة، فتكون في الوقت ذاته نتيجة وحجة، بحسب اضافتها إلى حجة أخرى. فنجد الحجة في ادنى السلم تقوى حجاجيا عبر مراتب الحجاج لتصل إلى النتيجة المرادة.

ن ـــــــ لا النظير يجيزه ولا النظير في الكلام يصححه
ح٤ ـــــــ لو خالفت عكست ما اوجبه القياس
ح٣ ـــــــ لأن الآخر اثقل من الوسط
ح٢ ـــــــ لأن ذلك ضد مقتضى الحكمة
ح١ ـــــــ ليس في كلام العرب.....

ولاحظنا كيف تتدرج الحجج ومن هنا تتضح أهمية هذه النظرية أي في اخراج قيمة القول من حيز المحتوى الخبري للقول إلى القيمة الحِجاجيّة[٩].

ومن هذه النظرية تبلورت أفكار ديكرو حتى أطلقها مجتمعة مع أفكار انسكومبر في مصنفهما المشترك (الحجاج في اللغة).

قوانين السّلم الحِجاجيّ:

السّلم الحِجاجيّ مجموعة أقوال تحكمها علاقة تراتبية للحجج، وهذه التراتبية إما مادية محسوسة مثل عدّ الانسان أعلى درجة من (الحيوان) أو تراتبية مجردة مثل: سمو العادل على النافع، فلكل حجة قيمة معينة تقوم على تراتبية وسلمية مما يجعل الوعي بتراتيبيتها أهم من القيم في حد ذاتها[١٠]. لذا تحكمه مجموعة قوانين، هي:

١- قانون الخفض (Loidabaissement): ومقتضى هذه القانون "أنه اذا صدق القول في مراتب معينة من السّلم، فإنّ نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها" [١١].

ونجد في قول اليزيدي (ت٢٠٢هـ) لما كان جالسا مع الفضل بن الربيع ودخل عليهما علي الأحمر، فجلس إلى الفضل، فقال له الفضل: "من كان أعلم بالنحو: الكسائي أو أبو عمرو بن العلاء؟ وكان أبو عمرو أستاذ أبي محمد قال: قلت له أصلحك الله، لم يكن أحدٌ بالنحو أعلم من أبي عمرو، فقال الأحمر: لم يكن يعرف التصريف. فقلت له: ليس التصريف من النحو، إنما هو شيءٌ ولدناه نحن واصطلحنا عليه. وكان أبو عمرو أنبل من أن ينظر فيما ولد الناس"[١٢]. فقول اليزيدي: "ليس التصريف من النحو"، استبعد كلّ الافتراضات القائلة بجزئية التصريف من النحو.

فمعنى هذا القانون أن الخفض الذي ينتج عن نفي القول (ليس التّصريف من النّحو) وهو (التّصريف من النّحو) لا يقع في نفس الدرجة من درجات السّلم الحجاجي، ولكن يمكن أن يصدق نقيض القول في المراتب الدّنيا من السّلم، ويمكننا رسم هذا السّلم بالشّكل الآتي:

ن(النتيجة) أبو عمرو أنبل من أن ينظر في علم مولد
وعدم معرفته بالتصريف لا يقلل من مكانته العلمية
هو علم مولّد ومستقل
ليس التصريف من النحو

فقول اليزيدي هذا جاء من أجل الدفاع عن علمية أبي عمرو وهذه العملية تستدعي الحجج المتدرجة للوصول الى نتيجة تخدم العملية الحجاجية ليصل اليزيدي بالمتلقي الى درجة التسليم بما أراده من طروحات، بغض النظر عن مطابقتها للواقع من عدمه، فقد رتّب الحجج على وفق مسلكٍ تدريجي بدأهُ بالحجة الأولى المتمثلة بنفي انتماء التصريف للنّحو، وبعدها تأتي الحجة الثّانية وهي حداثة هذا العلم نسبة الى النحو، ليصل بالمتلقي الى نتيجة (اهمال أبي عمرو للتصريف لا يعدّ جهلا بل هو من باب التّرفع عن العلوم المولدة).

٢- قانون النّفي، قانون تبديل السّلم :

ومقتضاه "أنه إذا كان القول دليلا على مدلول معين، فان نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله"[١٣] أي القول (أ) يكون نفيه (~ أ) دليل على نقيض المدلول.

أ ∋ ب ، ~ أ ∋ ~ ب

ومن ذلك ما دار بين ابن كيسان (ت٢٩٩هـ) والمبرد (ت٢٨٥هـ) في مجلس جمعهما؛ إذ قال ابن كيسان: "ثم سألته عن العلة التي توجب البناء فقال: الأسماء هي المتمَكنةُ الأوَل، والأفعال وحروف المعاني لها تَبَع، وإنّما وقع لها النقصُ في الإعراب – يعني ما لا ينصرف– والبناء لمضارعتها في حال الأفعال وفي حال حروف المعاني، فكلُّ اسم خرج من جملة الأسماء التي وضِعت للتمكّن في التسمية والتمكّن في(الإعراب) إلى مضارعة الفعل، وجبَ أن تحمل تلك المضارعة على الفعل في نقص الإعراب عن جملة الأسماء، وكلُّ ما ضارعَ حروف المعاني من الأسماء... فأصل كُلّ شيء مبني أن يضارع حروف المعاني"[١٤] ، فالنّتيجة هي قوله "أصل كلّ شيء مبني أن يضارع حروف المعاني"، توصل إليها من خلال التدرج في الحجج ويمكننا رسمها بالمخطط الآتي :

ن= أصل كلّ شيء مبنيّ أنْ يضارعَ حروفَ المَعانِي

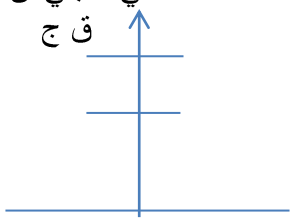

كلّ ماضارع حروف المعاني خرج إلى البناء
يقع النقص في الأسماء لمضارعتها الحروف
الحروف تابعة للأسماء والأسماء أصلها معرب

فلو نفينا القضايا (أ ، ب ، جـ) التي تخدم النّتيجة فيصبح لدينا(~ أ ، ~ ب ، ~ جـ) التي بدورها ستخدم نفي النتيجة أي (~ ن) فيكون السّلم على النّحو الآتي :

~ ن= لا يكون أصل كلّ شيء مبنيّا لمضارعته حروف المعاني

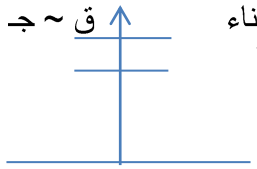

لايخرج ماضارع الحروف إلى البناء
لايقع النقص في الاسماء لمضارعتها الحروف
الحروف ليست تابعة للاسماء

ومن هنا يتبين معنى النفي من أ ، ~ أ ، ب ، ~ ب ... ، وكذلك يتبين معنى تبديل السّلم أي بنفي الحجج يتبدل السّلم أو يكون معناه بدل خدمة النّتيجة (ن) ، فإنه سيخدم النّتيجة (~ن) كما أوضحناه في المثال.

وجاء السّلم ونقيضه في نص واحد عند حجاج المازنيّ (ت٢٤٧هـ) للرياشيّ (ت٢٥٧هـ) في مسألة أصل لفظ الجلالة[١٥] إذ زعم الرياشي أن أصلها الإله مخفف فقيل اللاه، فردّ عليه المازني "كُلّ شيء خُفّفت من الهمزة فهو على معناه مخففا. وأنت إذا قلت اللاه فليس بعَلَم لله جلّ وعز فلو كان الله هي الإله مخففًا وأنت إذا قلت ألاله فليس بعلم لله جل وعز، فلو كان الله هي الإله مخففا لبقي على معناه، فلمّا جاء الله على غير معنى الإله علمنا أن هذا ليس مخففا"[١٦]. فذكر المازني السلم ونفيه معا وجاءت الجمل المثبتة لتخدم النتيجة المثبته والجمل المنفية لتدعم النتيجة المنفية، ويمكن وضع قول المازني في السّلم الآتي :

النتيجة ن = أصل الله ليس الاله مخففًا

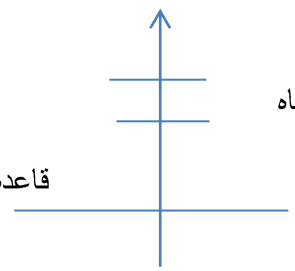

ولكن المعنى يختلف
لو كان الله هي الاله مخففًا لبقي على معناه
كل شيء خففت في الهمزة فهو على معناه مخففًا

وبنفي هذه الاقوال نحصل على نتيجة منفية لهذه النتيجة.

٣- قانون القلب :

ومقتضى هذا القانون "أنه إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في التّدليل على مدلول معين فإن نقيض الثاني أقوى من نقيض الأول في التدليل على نقيض المدلول"(١٧).

أي عندما يكون أ أعلى رتبة من ب للحصول على ن

فإن ~ ب أعلى رتبة حجاجية من ~ أ للحصول ~ ن

ويمكن التّمثيل لهذا القانون بالشّكل الآتي :

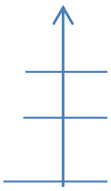

ن (نتيجة الاثبات)
أقوى (أ)
أقل (ب)
قيم موجبة

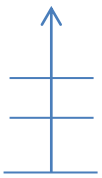

~ ن (نتيجة النفي)
أقوى (~ ب)
أقل (~ أ)
قيم سالبة

ويتمثل هذا السّلم في النّص الآتي للإسكافي بشأن مسألة تقديم التّمييز على الفعل الناصب له نحو قولهم " طبت نفسًا" إذ عرض قول سيبويه بالمنع فقال "ومن حجة سيبويه أن المنصوب هنا تمييز... وحجة سيبويه أن هذه الأفعال ضعيفة، وهي جارية مجرى العوامل التي تكون بمعنى الفعل، والدّليل على ضعفها أنها افعال المطاوعة، وهي بمعنى الانفعال، ولا يجيء هذا الفعل متعديًا البتة"(١٨).

فهذه الحجة التي نتيجتها هي (عدم إمكانية تأخر هذه الافعال ومن ثم الحكم بعدم جواز تقديم التمييز عليها) جاءت عبر مجموعة اقوال يمكن وضعها في السّلم الآتي:

ن = هذه الأفعال لا يمكن أن تتأخر عن معمولها

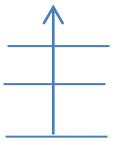

فهي أفعال لازمة
لأنها أفعال مطاوعة
بمعنى الأفعال
هذه الأفعال ضعيفة

جـ
ب
أ

ومعنى قانون القلب أن الإتيان بنقيض كل قول من الأقوال التي خدمت النتيجة سوف يؤدي هذا إلى خدمة نقيض النتيجة، مع ملاحظة أن الحجج الأضعف في النتيجة المثبتة ستكون أقوى عند نقضها والأقل رتبة حجاجية ستصبح أعلى، ويكون قلب السّلم السّابق كالآتي:

~ ن = هذه الأفعال يمكن أن تتأخر عن معمولها
لأنها أفعال قوية ليست مطاوعة
هذه الأفعال متعدية

أي بالمجيء بنقيض كل حجة ستنتقضُ النّتيجة، ولاحظنا كيف عند نقض حجج سيبويه سيؤول الامر إلى جواز تقديم التمييز على الفعل .

وفي مجلس ضم رجلين يختصمان أعجميّ وأعرابيّ على باب أبي عبد الله (عليه السلام) قال الأعجميّ للعربيّ " أنا افضل منك وفضلي عليك بينٌ في كتاب الله جل وعز . فقال العربي :أين هذا؟ فقال العجمي :قول الله تعالى : { وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ. فَقَرَأَهُ

عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ } وقد نزل عليكم فآمنا به نحن . فسكت العربي ودخل العجمي إلى أبي عبد الله فقال له :يا فلان ، فيمَ كنتم ؟ قال: كنا في كذا وكذا. قال خصمته. ثم قال أفلا ازيدك ؟ فقال بلى، جعلت فداك. قال: إن الله عزّ وجلّ يقول : { فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ } يعني العرب ، { فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ }، يعني العجم. ثم سكت ساعة وقال : ألا ازيدك ؟ قلت :بلى جعلت فداك، قال :فإن الله عز وجل يقول: { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا } يا معشر العرب {يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ } يعني العجم { ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } ثم قال أبو عبد الله: لا يزال الدين ذليلا ما عزت العرب" [١٩]. فالقول "لا يزال الدين ذليلا ما عزت العرب" هو سلم حجاجي يمكن وضعه على الشكل الآتي :

ن= العربي أساء للدين

العربي متكبر ب

الدين ذليل أ

ومع واقعية هذا السّلم إلا إنّ القائل كان يأمل بتغيره وقلبه بنفي الأقوال لتنقلب النتيجة، لذا استعمل كلمة "لا يزال" ولم يستعمل "ما يزال" التي تفيد الاستمرارية المطلقة، فلو انتفت هذ الاقوال لأصبح السّلم كالآتي:

ن= العربي لا يسيء للدين

الدين عزيز غير ذليل ~ ب

العربي غير متكبر ~ أ

مستويات السّلم الحجاجي:

بما أن الحجاج لا ينفك عن اللغة، والسّلم الحجاجيّ أحد هذه الآليات اللغوية للحجاج، فله من المستويات ما للغة من مستويات، ومن أبرز هذه المستويات:

أولا : سلميّة المعجم:

إنّ الكلمة بحد ذاتها قد تكون في رتبة معينة من سلم ما، كما هو الحال مثلًا في العلاقات داخل الحقل المعجمي من الحقول الدلالية[٢٠]، أو ما تقوم به بعض المعجمات من إيراد المعنى المضاد لكلمة ما للتعريف بها.

وتتضح السّلمية التي عالجها ديكرو في المستوى المعجمي من خلال بعض النماذج التي قدمها من قبيل الصّفات التي قد تطلق للتعبير عن الحرارة (بارد، قارس، حار، ساخن، دافئ) أو الكميات أو تدرجات الالوان. وكذلك الصفات التي تعد من أكثر أقسام الكلام تعبيرًا عن السلمية فالصّفة التي تقع أسفل السّلم هي أقل صفات السّلم حجاجيّة، وأقلها قيامًا بعملية التّوجيه الحجاجيّ، أما التي في أعلى السلم هي الصفة التي تحتوي السمات المشتركة وغير المشتركة لما يكون السّلم وتكون بذلك أكثر مفردات السّلم حجاجيّة[٢١].

فتكون هناك كلمات على طرفي نقيض تتوسطها تدرجات تقع بينها، ونجد في مجالس العلماء بعد مناظرة طويلة بين الزّجاج والمُبَرَّد أنّ الزّجاج اقتنع بحجج المبرّد وببراعته النّحويّة من خلال أسلوب المبرّد القائم على إقناع الزّجاج بآراء نحويّة ثُمّ ينقضها تباعًا ويقنعه بالنقض وهكذا حتّى قال الزّجاج " فقلت في نفسي: هذا هو الحق، وما سوى ذلك باطل. وانصرفت من عنده، ثم بكّرتُ إليه كالمعتذر، ولزمته" [٢٢] .

فقد عبّر الزّجاج عن مدى اقتناعه ببراعة المبرد بقوله "هذا هو الحقُّ" وأردفه بتعبير بالمعنى نفسه: "وما سوى ذلك باطل" فالحق كلمة ذات دلالة معجمية يعرّف عنها دائمًا بالنقيض وهو "الباطل" فيقال :الحق هو نقيض الباطل، وكذا في تعريف "الباطل" واستعمال الزّجاج هاتين المفردتين هو لإظهار مدى تأثره بالمبرد، ونلاحظ أنه لا يوجد تدرجات بين الكلمتين فالأمر إمّا حقّ أو باطل.

ولكن هناك صفات اخرى أيضًا تكون على طرفي نقيض مع إمكانيّةِ وجود مراتب بينهما ففي قول الاسكافي واصفًا حجة الفرّاء في رأي نحويّ "وهذا الذي ذهب إليه ضعيف جدا لا يصحّ"(٢٣) ، فبين القوة والضعف مراتب منها المقبول، والجائز، وعندما استعمل الاسكافيُّ هذه المفردة لم يكتفِ بقوتها الحجاجيّة الدّالة على رفض الرّأي النّحويّ الذي عرض له، بل أردفها بكلمة "جدًا" أي انه وصف أعلى من الضّعف، ويمكن وضع السلّم الآتي لهذه المفردة وهو سلّم يتجه للأسفل لحملهِ قيمًا سلبيّة:

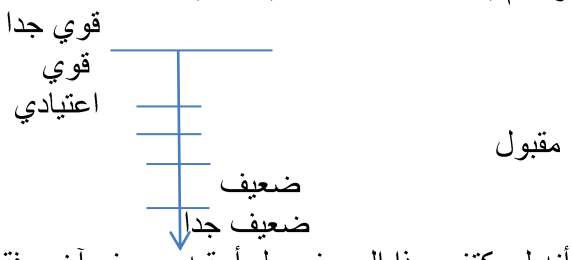

وأيضًا نلاحظ أنه لم يكتفِ بهذا الوصف، بل أعقبه بوصف آخر، فقال عن هذا الرأي "لا يصح" فرماه بعدم الصّحة، كُلّ هذه النّعوت تحمل قيمًا حجاجيّة تجعل المتلقي نافرًا من تبني هذا الرأي النحوي الذي عرض له الاسكافيّ. ومن هنا تتضح أهمية معنى المفردات معجميًا في تكوين السلّم الحجاجيّ.

ثانيًا: سلمية الصرف:

لاشكَ أنه لو لم تختلف معاني الكلمات لما اختلفت الصيغ الصرفية إذ أن كلّ عدول من صيغة إلى صيغة خرى لابدّ أن يصحبه عدول عن معنى إلى آخر(٢٤)، والانتقال من صيغة إلى أخرى من ناحية تراتبية السلم الحجاجي له أثر كبير في دعم الحجة، فإذا نظرنا إلى قول ثعلب "لا يصح الشّعرُ ولا الغريبُ ولا القرآنُ إلا بالنّحو. النّحو ميزانُ هذه كلّه. وقال: تعلّموا النّحوَ فإنّه أعلى المراتب"(٢٥)، نجد النتيجة (تعلموا النحوَ) قد دُعمت بالحجة الأولى وهي الجملة السابقة "لا يصح...النحو ميزان هذا كلّه " وبالحجة "أنّه أعلى المراتب" وفي هذا القول نرى (أعلى) هي كلمة قوّت الحجة وبصيغة (أفعل التفضيل) فنجد الانتقال بالصيغ في السّلم الآتي:

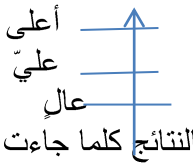

فالوظيفة الحجاجيّة استدعت استخدام (أعلى) فالنتائج كلما جاءت بصورة غير بديهية يلزمها حجاج قوي من ناحية السّلم، فقوله "النّحو ميزان هذا كلّه" وقوله "تعلموا النّحو" جعل النّحْوَ ميزان الشعر والغريب والقرآن، ومن المفترض من ناحية زمنية النحو بعد هذا كلّه وليس ميزانه فلما جاء النحو وأصبح معيار صحة الشّعر والغريب والقرآن، احتاج هذا الادعاء إلى حجاج قوي لذا استخدم ثعلب(أفعل التفضيل) بكلمة (أعلى).

ثالثًا : سلّميّة التّقسيم البلاغيّ:

ويُقصد به "ما يوفره المكون البلاغي للملفوظ من قيمة مضافة عبر تبدلات جهازه، ليحتل درجة مهمة من السّلّم الحِجاجيّ"(٢٦)، هذه الدرجة المهمة تزود النص بطاقة حجاجية عالية تدفع المتلقي إلى الإذعان.

فالاستعارة مثلا قد تعلو استعمال ألفاظ الحقيقة عندما يفضل المتكلم استخدامها ثقة منه بأنّها أبلغ من الحقيقة حجاجيًا، وهذا ما يرجح ضمن أدوات السّلّم الحجاجيّ؛ ذلك لأنّ الاستعارة الحجاجيّة تهدف إلى احداث تغيير في الموقف الفكريّ أو العاطفيّ للمتلقي وهو ما يسعى إليه المتكلم (٢٧). وتقوم قوة الاستعارة على عملية الاستنتاج فمن السّهْل أنْ نقوم بنفي

كلام يوجه إلينا أكثر من أن ننفي ما تمّ استنتاجه ومن ثَمّ تعدّ دليلا خالصًا غير قابل للنقض[٢٨]. غير أن الاستعمال المجازي للكلمة لا يحقق في النفس ما قد يحققه الاستعمال الحقيقي للكلمة وإن كان مخالفًا لما يقتضيه المنطق، فالقول الاستعاري فائدته تزيد قوة عن فائدة القول الحقيقي الذى يوضحه ويشرحه ومنه قولنا (ضحكت الشمس) أبلغ فائدة من العبارة التي تفسره (اشرقت الشمس)[٢٩].

وعليه يمكن القول إنّ الاستعارة غير الحجاجيّة ليس لها تأثير على المتلقي ولا ترتبط بالمتكلمين ومقاصدهم الحجاجيّة فالسياق الذى ذكرت فيه الاستعارة هو الكفيل بتحديد المسار الاستعاري الذي يقرر ما إذا كان القول للبيان والتوضيح أو للتّعبير عن الذات أو هو وسيلة للإقناع وعليه فإن الاستعارة تثبت حكمًا قطعيًّا للمستعار له فهي لا تقف عند التّوضيح أو التّعبير عن الذات وهى بذلك تكون وسيلة اقناعية. وعثرنا في المجالس فقط على الاستعارة البديعية أو ما يطلق عليها الاستعارة غير الحجاجيّة والهدف منها إظهار البراعة واستخدام المحسنات البلاغية في استعمال المفردات وهدفها ليس التّأثير في المخاطب أو المتلقي، فالسّياق هو سياق التّفنن الأسلوبيّ وليس التواصل والتّخاطب[٣٠]. ولهذا السبب لم نستخدم هذه الاستعارات تطبيقات لهذا المستوى.

وكذلك الكناية تعد من مستويات البلاغة الحجاجيّة فبدل أن تصرح تكني وينطبق عليها ما قلناه عن الاستعارة ومن ذلك ما دار في مجلس جمع عيسى بن عمر مع أبي عمرو بن العلاء. إذ جاء عيسى بن عمر إلى أبي عمرو فقال له: "يا أبا عمرو، ما شيء بلغني أنك تجيزه؟ قال: وما هو؟، قال: بلغني أنك تجيز:(ليس الطيب إلا المسك) بالرفع، قال: فقال أبو عمرو: نمت يا أبا عمر وأدلجَ الناس، ليس في الأرض حجازيّ إلا وهو ينصب، ولا في الأرض تميميّ إلا وهو يرفع" [٣١]. ففي قوله " نمت يا أبا عمر وأدلج الناس" كناية عن صفة أي عن غفلته، فأدلج الناس أي ساروا في آخر الليل وأنت نائم ولكنه لا يريد هذا المعنى أي النوم والقوم ساروا، بل أراد أن يقول له إنّه غفِل عن الحقيقة، فالزمه الحجة بكناية "نمت وأدلج الناس"

وكذلك التّشبيه بتنوع أضربه تتدرج تراتبية التّأثير الحجاجي لكل نوع، ويمكن وضعها ضمن السّلّم من الأضعف إلى الأقوى ليتحصل السّلّم الآتي[٣٢] :

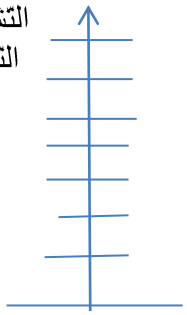

التّشبيه الضمني (يكون المشبه والمشبه به ضمنيان يلمحان من التركيب)
التّشبيه البليغ (ما حذف فيه اداة التشبيه وجه الشبه)
التّشبيه التمثيلي (اذا كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد)
التّشبيه المقلوب (ما يكون المشبه مشبها به)
التّشبيه المجمل (ما حذف منه وجه الشبه)
التّشبيه المؤكد (ما حذفت منه الاداة)
التّشبيه المفصل (ما ذكر فيه وجه الشبه)
التّشبيه التام (المستوفي لجميع اركانه)

وفي المجالس النّحوية نجد العلماء اعتمدوا البلاغة في حجاجهم ليصلوا بالمتلقي (الطالب أو العالم النحو أو ...) لدرجة الاقتناع، ونجد ثعلبًا يستعمل تشبيهات كثيرة ليثبت الحكم النحوي الذي اختاره، ووصف ما خالفه بـ(القبيح) فيقول "إذا قلت: ما فيك راغبٌ زيد، وما طعامك آكلٌ زيدٌ، كان الاختيار هكذا الرّفع ؛لأن الفعل أولى بالحق من المفعول والصّفة، وكان كأنّ الفعل مع الجحد، فإذا ادخلوا الباء فيهما كان قبيحًا، لأنه قد جاء الاسم بعدهما، لأنه لما جاء ثانيا احتاجوا إلى أن يعلموا أنه الفعل، وإنّما تدخل الباء للفعل، فإذا اخروا الفعل فقالوا: ما طعامك زيدٌ بآكلٍ، وما فيك زيدٌ براغب ثم نزعوا الباء، كان الاختيارُ الرّفعَ، لأنّ الباء حالت بين الاسم وما ، فكأنَّ الفعل معها. وكذلك اختاروا الرفع، فإن نصبوا

فقالوا : طعامك زيدٌ آكلًا، وما فيك زيدٌ راغبًا، لم يعبئوا بالصفة ولا المفعول، لأنها من صلة الفعل، فكأنهم قالوا: ما زيد آكلًا طعامك ، وما زيد راغبًا فيك"[٣٣].

فنجد في جمل (كأن الفعل مع الجحد، فكأن الفعل، فكأنهم قالوا) استعانة ثعلب بأداة التشبيه (كأن) فمثلًا في قوله (لأن الباء قد حالت بين الاسم وما، فكأن الفعل معها) أراد الدعم لادعائه فعلله أولًا ثم استخدم التشبيه لمساندة التعليل، وكذلك في قوله (فكأنهم قالوا) أي شبّه قولهم (ما فيك زيدٌ راغبًا) بـ (ما زيدٌ راغبًا فيك) فهذا التشبيه أجاز له النصب في (ما فيك زيدٌ راغبًا) .

وفي هذا النص نجد أيضًا سلمين حجاجين أحدهما سلم الحث على الفعل والاخر سلم الحث على الترك، فكلمة (أولى) ما هي الا رتبة حجاجية تقع في أعلى سلم الحث على الفعل حتى أنها تقع أعلى من الواجب، وكلمة (قبيح) تقع ضمن الاحكام المكروهة وتقع أسفل الاحكام المحرّمة رتبة في سلم الحث على الترك[٣٤]، فالأحكام النحوية تقع بالنسبة لأصول النحو موقع الاحكام الفقهية بالنسبة لأصول الفقه، أي النحو من ناحية التطبيق العملي يشبه الفقه، وأرى أنه من الخطأ المقارنة بين النحو وبين أصول الفقه، ومن الأفضل المقاربة بين النّحو والأحكام الفقهية من أجل فهم آراء النحاة بصورة أوضح.

وليست ضروب التّشبيه يمكن تقسيمها تراتبيًا بل أصناف الخبر أيضًا لكلّ منها درجة في السّلم الحجاجيّ، وقد قسّم البلاغيون العرب الخبر على ثلاثة اضرب حسب رتبتها وقوتها الحجاجية، وهي الخبر الابتدائي، الخبر الطلبي، الخبر الانكاري [٣٥] .

ففي الخبر الابتدائي تخلو الجملة من أدوات التوكيد ، لذا يقع في قاعة السلم الحجاجي، عندما يكون المتلقي خالي الذهن من أي حكم سابق فيأتي الخبر الابتدائي برتبة أقل من ناحية الطاقة الحجاجية، وانتبه المبرد لهذا الأمر وكان يرى "أن عبارة: (عبد الله قائم) تستخدم في موطن لا تستخدم فيه عبارتا: (إن عبد الله قائم) و(إن عبد الله لقائم) فالعبارة الأولى تعبر عن مجرد الإخبار بقيام عبد الله، بينما العبارة الثانية تستخدم للإجابة عن سؤال سائل تأكيدا له، أما العبارة الثالثة فتستخدم في خطاب من ينكر قيام زيد ويبالغ في إنكاره، ومن أجل ذلك تؤكد له العبارة بمؤكّدين"[٣٦] وتأتي تدرجات الخبر في السّلم الآتي:

خبر إنكاري
خبر طلبي
خبر ابتدائي

فالخبر الابتدائي يأتي مع المتلقي خالي الذهن أو غير المنكر للقول، لذا استعمله ثعلب في قوله: "والعرش :كل شيء مرتفع"[٣٧] فهو لا يحتاج إلى طاقة حجاجية أكبر كون المتلقي خالي الذهن من الحكم المسبق على القول، وكذلك قال في مواقع مشابهة "المرغوس: ذو المال والولد"[٣٨] وقال "العربسيس: الداهية"[٣٩]، وعن التقريب يقول: "التقريب مثل كان. إلا أنه لا يُقدّم في كان"[٤٠]، فقد ابتدأ بخبر ابتدائي، ثم زاد التوكيد في قوله (أنّه لا يقدّم...) فكلما زاد علم المتلقي بالشيء أو زاد انكاره له زادت القوة الحجاجية وتطلب القول مؤكدات أكثر. ومن ذلك قول سيبويه عندما لحنَ ونبّهه شيخُه على لحنه: "لا جرم واللهِ، لأطلبنّ علمًا لا تلحنني معه "[٤١] فاستعمل سيبويه التوكيد بالقسم واللام ونون التوكيد الثقيلة كي يعطي قوله طاقة حجاجيّة عالية ليقنع نفسه والمخاطب بهمته العالية في تحصيل علم النحو.

رابعا: سلّمية التّركيب النحويّ: إنّ التركيب النّحويّ يوفّر تراتبية حجاجيّة للنّصوص حسب مقام الخطاب، فالتّركيب الطبيعي للجملة قد لا يستفز المتلقي، أما خرق هذا التّرتيب فلا يكون اعتباطيًا بل تستوجبه حالة المتلقي من النّص، أو قصدية المتكلم بجعل المتلقي يلتفت إلى هذا الخرق من أجل الإذعان والاقتناع.

وتتعدد أشكال الخرق في التّركيب، ومنها التقديم والتّأخير حتى إن كان يبدو أمرًا طبيعيًا ولكنه يبقى خرقًا، مثلا نأخذ قول الإسكافي "وبيان مذهبهم أن الأسماء المضمرة ثلاثة: اسمٌ للمتكلم، نحو: انا، والتاء في ضربتُ، وسائر الأسماء التي لك واسم للمخاطب..، فاسم المتكلم والمخاطب لا يحتاجُ إلى تقدم ذكر للمشاهدة، واسم الغائب لا بُدّ له في حال الإضمار من ذكرٍ متقدم، فعلى مذهبهم يجوز: راكبًا جئتُ، فيكون راكبًا للتاء"(٤٢).

ونجد فيه تقديمًا وتأخيرًا مسموحًا به في العرف النحويّ وهو قوله "فاسم المتكلم والمخاطب لا يحتاج..." ولم يقل "فلا يحتاج اسم المتكلم والمخاطب..."؛ ذلك لأنه أراد الاهتمام بالمتقدم على المؤخر، وكذلك فعل في قوله "واسم الغائب لا بُدّ له.." ، وقوله " فعلى مذهبهم يجوز"، ومع جواز هذا التقديم والتأخير إلا إنّه دليل على اهتمام الإسكافي بالمقدّم من أجل تقوية حجاجه من خلال هذا الخرق الذي يجعل المتلقي يلتفت إليه، وليس خرق التّركيب وحده يعطي قوة حجاجيّة للملفوظ، بل للقرائن الحجاجية أثر كبير في السّلم الحجاجي، لاسيما روابط التّعارض الحجاجي التي تكون الحجج التي بعدها أقوى واشمل في الحجج التي قبلها؛ لذا يكون وجودها في الجملة من مكونات السلم الحجاجي، ومن جميل القول ما ذكره الاسكافي عن أثر الكلام الحسن في نفس المخاطب، إذ يقول: اذا قال القائلُ لآخر: سلامٌ عليكَ، وكذلك اذا قال: عِش ألف سنة، مع علمه أنه ليس لذلك تأثيرٌ، ولا تقديمٌ ولا تأخيرٌ ولا زيادة ولا نقصان، ولكن للألفاظ الحسنةِ مواقع من الاسماء مخالفة لمواقع الالفاظ السيئة، كما أن للمنظر الصبيح موقعًا من العيون خلافَ موقع المنظر القبيح"(٤٣) فما بعد (لكن) حجة أقوى مما قبلها دفعتنا للاقتناع برأي الاسكافي عن أثر الكلام الحسن في النفس، ويكون تراتب الحجج على الشكل الآتي:

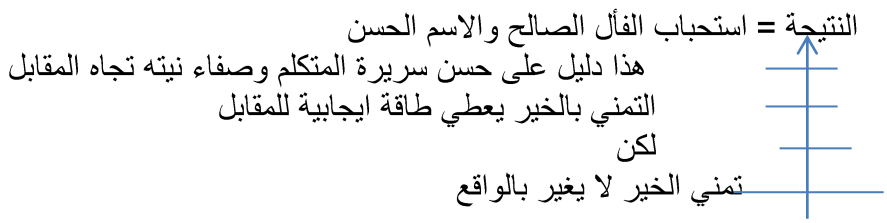

ولا نزعم أن (لكن) من قامت وحدها بالوظيفة، إذ ساعدتها عوامل بلاغية اخرى مثل التشبيه في قوله (كما أن..) وكذلك السجع في قوله (للمنظر الصبيح، والمنظر القبيح). فقد قامت (لكن) من خلال دعمها للحجة بالوظيفة الحجاجية المطلوبة وما ذكرناه في أمور أخرى أعطت قوة حجاجية أكبر للملفوظ وكلّ ذلك يسير باتجاه دعم النتيجة المطلوبة من النص.

ومن ضمن التّأثيرات النحوية في السّلم الحجاجيّ الأساليب النّحويّة التوكيد والشرط وغيرها، وقد بينا أهمية التّوكيد وأدواته في تراتبية الحجج وتغيير نوع الخبر من نمط إلى آخر حسب وجود المؤكدات وعددها.

وليس التّركيب بمعزل عن المحيط العام للنّص، فتتدخل عوامل اخرى تسهم تحديد نمطية التّراكيب، منها السياق، المقام، المقاصد والأهداف، طبيعة المتلقي ووجدنا كيف تختلف من كتاب لآخر، بل من مجلس لآخر وغيرها من الظروف المصاحبة للنّص هي التي تفرض نوع الحجاج وأسلوب أدواته وتراتبية الأقوال فيه.
ومن خلال البحث وجدنا أن التدرج في الحجج المكون للسلالم الحجاجية، لا يخدم النتيجة في نهاية السلم فحسب، بل له أثر ووقع نفسيّ في نفس المتلقي، بجعله يذعن للحجة عن قناعة. ولكن قد يتخلى صاحب الحجة الأقوى عن محاولة اقناع المخاطب لإدراكه عدم

مقبولية الحجة مسبقًا. ففي مجلس أبي عبيدة مع المازني، يروي المازني للمبرد هذا المجلس بقوله: " قال لي أبو عبيدة : ما أكذب النحويين؟ فقلت له: لمَ قلت ذلك؟ فقال : يقولون إنّ هاء التأنيث لا تدخل على ألف التأنيث، وأن الألف التي في علقي ملحقة وليست للتأنيث. قال: فقلت: وما أنكرت من ذلك؟ قال: سمعتُ رؤبة ينشد: فحطّ في علقي وفي مكور ...

فقلتُ له : فما واحد العلقى؟ قال لي: علقاةٌ. قال أبو عثمان: فلم أفسره له لأنّه كان أغلظ من أن يفهم مثل هذا " (٤٤).

ويتضح من قول المازني عن أبي عبيدة " فلم افسره له لأنه كان أغلظ من أن يفهم مثل هذا" أنّ العملية الحجاجيّة لم تنجح ومن ثم لم ينجح التواصل بين العالميين، إذن السياق الخارجي مهم في انجاح هذه العملية وتعرّف بأنها مجموعة الظروف التي تحيط بعملية فعل التلفظ بموقف الكلام (٤٥). وفضلا عن المستويات المذكورة وعنصر السياق، يدخل عنصر التنغيم أيضًا بوصفه عاملًا مهما في إبراز المستوى التركيبي وتحديد طبيعة التركيب النحوي.

وبهذا يكون مفهوم السّلالم الحجاجيّة من خلال طابعها بتدرج الحجج من أهم الآليات اللغوية الحجاجيّة، وذلك لأن المنظومة الحجاجيّة المتكاملة أساسها القوة والضعف والتدرج بالحجج لا على أساس الصدق والكذب(٤٦).

Abstract

Argumentative ladders and their levels in the books of grammar boards

By Asmahan S.Kadhem

And Mohamed Abdel Mashkour

The Echelles argumentative and levels In the books of grammatical session, The Echelle argumentative Is to arrange the arguments in the loudspeaker according to degrees of weakness and strength, The importance of the theory of the Echelles argumentative In the output of the value of the pilgrims' words from the space of the experiential content of the statement subject to the conditions of logical truth,to saying argumentative with a pilgrimage destination whose value is determined in support of a result, It is therefore made of the pillars of theory of the argument linguistic.

الهوامش

(١) العين :٧/ ٢٦٦.

(٢) المخصص :١٤١/٥

(٣) القاموس المحيط : ١١٢١/١

(٤) تاج العروس : ٣٢ / ٣٨٤

(٥) تاج العروس : ٣٢ /٣٨٤.

(٦) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي :٢٧٧.

(٧) نظرية الحجاج في اللغة (بحث) ضمن كتاب (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من ارسطو إلى اليوم) :٣٦٣.

(٨) كتاب المجالس :٥٠ و ٥١.

(٩) يُنظر: نظرية الحجاج في اللغة (بحث) ضمن مصنف (أهم النظريات الحجاج في التقاليد الغربية من ارسطو إلى اليوم) : ٣٧٠

(١٠) يُنظر: الحجاج بين الدرس البلاغي والدرس اللساني الغربي ، دراسة تقابلية مقارنة (اطروحة دكتوراه):١١٦ .

(١١) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي :٢٧٧.

(١٢) مجالس العلماء : ١٣٠

(١٣) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي :٢٧٨.

(١٤)مجالس العلماء : ١٦٨ و١٦٩.

(١٥) لفظ الجلالة من أكبر الأسماء وأجمعها للمعاني و(ال) هنا ليست زائدة بل هي (أل) اللاهوتية بلفظها الأكدي المعتمدة من السومرية والملازمة لأسماء الآلهة والتي تطورت فيما بعد لتدلّ بمفردها على (الإله) الأكبر عند الساميين، وأخذتها العربية من الأكدية وأضافتها الى لفظ (إله) ثم حصل الإدغام بين اللامين بعد سقوط همزة (إله) فصار اللفظ (الله)، ينظر بحث (اداة التعريف (أل) في العربية، و(أل) اللاهوتية في السومرية والأكدية، المفهوم والعلاقة) في كتاب: في الساميات واللسانيات المقارنة، دراسات في النحو والدلالة : ٤٨-٥٧

(١٦) مجالس العلماء :٥٦.

(١٧) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي :٢٧٨.

(١٨) كتاب المجالس : ١٥٣.

([١٩]) مجالس العلماء :١٨٣.
([٢٠]) يُنظر: علم الدلالة :أحمد مختار عمر :٩٩.
([٢١]) يُنظر: السلالم الحجاجية في القصص القرآني – مقاربة تداولية (اطروحة دكتوراه) :١٢٠ – ١٢٢.
([٢٢]) مجالس العلماء :١٢٧.
([٢٣]) كتاب المجالس :٣٧٣ .
([٢٤]) يُنظر: معاني الابنية في العربية :٦ .
([٢٥]) مجالس ثعلب :القسم الأول /٣١٠
([٢٦]) السلالم الحجاجية في القصص القرآني – مقاربة تداولية (اطروحة دكتوراه) :١٣٠.
([٢٧]) يثنظر: استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية :٤٥٩.
([٢٨]) يُنظر: الاستعارة والحجاج (بحث)/ مجلة المناظرة/ ع ٢٤- ١٩٩١ : ٨٨.
([٢٩]) يُنظر: الاستعارة بين حساب المنطق ونظرية الحجاج (بحث) /مجلة المناظرة/ ع ٤-١٩٩١: ٥٤.
([٣٠]) يُنظر: نحو مقاربة حجاجية للاستعارة (بحث)/ مجلة المناظرة/ ع ٤- ١٩٩١ : ٨٨
([٣١]) مجالس العلماء :٣.
([٣٢]) السلالم الحجاجية في القصص القرآني / مقاربة تداولية (اطروحة دكتوراه) :١٣١. ولكن ورد في هذه الاطروحة التشبيه البليغ أعلى رتبة حجاجية من التشبيه الضمني، ولكن في الواقع التشبيه الضمني أعلى رتبة حجاجية كونه لم يصرح فيه بأركان التشبيه وكلما كان التشبيه أقرب للاستعارة كان أقوى تثبيتا للحجة ومن هذا النوع قول المتنبي : فإن تَفُق الأنامَ وأنت منهم ... فإنَّ المسكَ بعضُ دم الغزال ، فعندما يخاطب المتنبي سيف الدولة انه فاق الناس وهو منهم أصبح في موقف المبالغة والكذب ولكنه جاء بحجة دعمت هذا الادعاء وهذه الحجة تتمثل بقوله (فإنَّ المسكَ بعضُ دم الغزال) ، التشبيه الضمني أعلى قدرة حجاجية من البليغ.
([٣٣]) مجالس ثعلب :القسم الثاني / ٤٧٧.
([٣٤]) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي : ٢٨٦
([٣٥]) يُنظر: البلاغة العربية :١/ ١٤٥.
([٣٦]) الإيضاح في علوم البلاغة : ٧١/١
([٣٧]) مجالس ثعلب :القسم الاول/٢٦٩.
([٣٨]) مجالس ثعلب :القسم الاول /٢٧٥ .
([٣٩]) مجالس ثعلب :القسم الاول /٢٧٦ .
([٤٠]) مجالس ثعلب :القسم الاول /٤٣.
([٤١]) مجالس العلماء : ١١٨
([٤٢]) كتاب المجالس :٧٥.
([٤٣]) كتاب المجالس :٧٣
([٤٤]) مجالس العلماء :٢٤ .
([٤٥]) يُنظر: استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية :٤١.
([٤٦]) يُنظر: نظريات الحجاج في اللغة (بحث) ضمن مصنف (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم) :٣٧٠.